

تظاهرات المدينة وأبعادها الدلالية في الرواية الجزائرية المعاصرة

الدار الكبيرة لمحمد ديب أنموذجاً

The manifestations of the city and its semantic dimensions in the contemporary Algerian novel "the big house" of Mohammed Dib as a model.

طالب أمار

جامعة وهران 1 أحمد بن بلة/ الجزائر، talebamal52@gmail.com

أ.د. آيت حمروش فريدة

جامعة أحمد بن بلة 1 وهران/ الجزائر، faithamadouche@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2026/10/14

تاريخ القبول: 2023/02/24

تاريخ الاستلام: 2023/02/14

ملخص:

يعتبر المكان أحد المكونات البنائية التي يقوم عليها العمل الروائي إلى جانب الزمان والشخصيات، فلا يمكن أن نتصور المبدع لحظة إبداعه للعمل الفني إلا وهو يتصور حيّزاً ديكورياً في مخيلته تتحرك فيه شخصيات روايته، لتتمثل بذلك تيمة المدينة في الخطاب الروائي العالمي عامّة والعربي المعاصر خاصة مكوناً أساسياً. فقد اقترنت الرواية الجزائرية المعاصرة بالمدينة، حيث أصبحت هذه الأخيرة ملفوظاً روائياً بامتياز ولم تعد مجرد موقع جغرافي بقدر ما أضحت إيجاءً للخير والجمال أو مصدرًا للبؤس والشقاء والغربة والاغتراب أو رمزا للضياع والألم، فغابت أبعادها الهندسية والعمرائية وتحوّلت إلى طاقة خيالية تمدّ الكاتب بالإلهام متجاوزة الحياة المعيشية اليومية إلى الدلالة التأويلية الممكنة لها لتمنح الكاتب التفاعل مع الناس والمجتمع. كلمات مفتاحية: المكان؛ حيّز؛ تيمة المدينة؛ الرواية الجزائرية المعاصرة؛ الدلالة التأويلية.

Abstract:

The place is one of the structural components on which the work of fiction is based, in addition to time and the characters. It is not possible for the creator to imagine the moment of his creation of the work if he does not imagine in his imagination a decorative space in which the characters of his novel move, thus representing them of the city in the international narrative discourse in general and contemporary Arabic in particular as an essential component. The contemporary Algerian novel has been associated to the city, where the latter has become a narrative expression par excellence, and is no longer just a geographical place as much as it has become an insinuation of good and beauty, or a source of misery and alienation, or a symbol of loss and pain.

Keywords: place; space; them of the city; contemporary Algerian novel; interpretative meaning.

المؤلف المرسل: طالب أمال، talebamal52@gmail.com

1. مقدمة:

تهتم الرواية باعتبارها الجنس الأدبي الأكثر انتشارًا بتصوير المدينة وتغييراتها الجديدة المتسارعة، فلا يُراد بمصطلح المدينة الدلالة الجغرافية فحسب، بل تشمل أيضًا فضاءاتها المعنوية والاجتماعية، فالروائي يجعل من المدينة رمزًا في كتاباته، نقرأ من خلالها الأبعاد الاجتماعية والنفسية للشخصية وما يعتريها من غموض. حيث مثلت تيمة المدينة في الخطاب الروائي العالمي ومنه العربي المعاصر، مكوّنًا أساسيًا، باعتبار أن المكان يمثّل عند الكثيرين هوية العمل الأدبي، ويرى "حسين بجراوي": "أنّ الرواية الحديثة، خاصّة منذ بالزرك، قد جعلت المكان عنصرًا حكايًا بالمعنى الدقيق للكلمة، فقد أصبح الفضاء الروائي مكوّنًا أساسيًا في الآلة الحكائية،¹ فالمدينة حيّز مكانيّ، إذ يحمل هذا الأخير صورة التفاعل الثقافي والفكري للأجناس البشرية، وهنا يأتي دور الكاتب ليسجل علاقته بهذا المكان، فصورة المدينة هي إحدى تجليات رؤية الروائي إلى المكان، وهذه الأخيرة يفرزها الواقع المعيشي.

ويمكن القول أنّ للروائيين العرب سهم في كتابة المدينة عبر المنجز الروائي الذي ينجزه كل منهم، فالمتتبّع للرواية العربية والجزائرية على وجه الخصوص، يلحظ أنّها اتخذت من المدينة بيئة لها وموضوعًا خصبا لا يستهان به، ويُعدّ "محمد ديب" (1920-2003) من أبرز الكتّاب المؤسّسين للأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، الذي جدّدوا في كتاباتهم الإبداعية سواء على مستوى الشكل أو على مستوى المضمون وذلك من خلال المواضيع التي تطرّق إليها، فلقارئ لروايات الكاتب "محمد ديب" وخاصة رواية "الدار الكبيرة" (La grande maison) سيكتشف استخدام هذا الأخير العنصر المكاني بدءًا من عنوان الرواية "الدار" وصولًا إلى بقية الأماكن المذكورة في الرواية.

فصورة المدينة في المنجز السردي وبالتحديد الرواية مقترنة بإشكالية المكان ككل، وهي علاقة تفصح عن إشكاليات الهوية والذاكرة والتاريخ المطروحة، لذلك كان الهدف من هذه الدراسة البحث

في فضاء المدينة وعلاقته بالرواية عامة والخطاب السردى الجزائري خاصة، الأمر الذي دفعنا ل طرح بعض التساؤلات:

- كيف تجلت المدينة في رواية "الدار الكبيرة" لمحمد ديب؟

- ما هي علاقة الرواية بالمدينة؟

- وهل تمّ توظيف المدينة في المتن الروائي الجزائري بشكل يليق بفضاء المدينة، أم ظل توظيفها باهتا محتشما مقارنة بما حظيت به مدن وعواصم العالم؟

كل هذه التساؤلات سنحاول الإجابة عنها إلى جانب تحديد المصطلحات التي وردت في البحث، ولقد وقع الاختيار على رواية "الدار الكبيرة" للروائي الكبير "محمد ديب"، باعتبارها عيّنة تشتمل على مظهرات المدينة في المتن الروائي الجزائري.

2. المتصور المعرفي للمدينة والرواية:

1.2 مفهوم المدينة:

(أ) - لغة: جاء في لسان العرب "لابن منظور": "المدينة على وزن فعيلة، وهي مشتقة من الفعل الثلاثي "مَدَنَ"، على وزن فعل، وتُجمع على مَدَائِن بالهمز ومُدُن ومُدُنٌ بالتخفيف والتثنية والتسبة مَدِينٍ، مَدَائِنِي، مَدِينِي... والمَدِينَةُ الحِصْنُ أي كلُّ أرضٍ بُنِيَ بها حِصْنٌ فهي مدينة".² وبذلك نجد أنّ المفهوم اللغوي مرتبط بمجال البناء والتعمير في جميع أنحاء الأرض.

(ب) - اصطلاحاً: من الصعب وضع تعريف شامل ومُحدّد للمدينة، كما أنّ الحديث عن المكان يُقصدُ به الحديث عن المدينة ذاتها، "فالمدينة تمثل فضاء جغرافيا واجتماعيا، تضمّ مجموعة من البنايات يسكنها عدد معتبر من البشر يشتغلون في نشاطات ذات طابع تجاري وصناعي وإداري، أي تختلف عن القرية من حيث الطبيعة الاجتماعية والاقتصادية، وكذا من حيث العدد البشري".³ فالمدينة ظاهرة مكانية، ولكلّ مدينة شخصيّتها ودلالاتها المميّزة لها تبعا لتمييز عادات ساكنيها وحاجاتهم، "كما أنّ الإنسان يطبع المكان الذي يعيش فيه بطابعه الخاصّ، ولذا كثيراً ما يحدث التشابه بين الإنسان و المكان الذي يسكنه وهكذا تكون المجتمعات على صورة المدن والعكس يصحّ، لكون التأثير متبادلاً"،⁴ فالاجتماع حين يتواصل ويتفاعل مع المكان فهو بذلك يُتيح للمدينة

أن تتشكل كفضاء يُصوّر علاقة الإنسان مع المكان أو المدينة، أي أن علاقة الإنسان بالمكان الذي يعيش فيه هي علاقة تأثير وتأثر كلاهما يعكس صورة الآخر وبالتالي حدوث تشابه بين الإنسان والمكان الذي يعيش فيه كالعادات والتقاليد واللغة، فالمدينة مرتبطة بالحياة اليومية للأشخاص فهي لا تُعبّر عن مساحة للعيش فيها فقط إنّما هي دليل على هويّة ساكنيها.

2.2 مفهوم الرواية:

(أ) - لغة: ورد في "المعجم الوسيط": "رَوِيَ من الماء ونحوه- رَيًّا، ورَوَى: شَرِبَ وشَبِعَ، ويقال: روي الشجر والتّبت: تنعم-، فهو رَيّان وهي رَيّا، أرواه: جعله يروي، و-فلانًا الحديث والشعر: حمّله على روايته، والحديث أو الشعر: رواه، والرّاوي: راوي الحديث أو الشعر: حامله وناقله، و(ج) رواية، والرّواء: المنظر الحسن، الرّواية: القصة الطويلة (محدثة)، الرّويّ: الشرب التّام"⁵ وبذلك يكون معنى الرواية جمع الكلام ونقله.

وقد ورد في "لسان العرب" أيضا: "يروي الحديث والشّعر يرويّه رواية، والرّواية كذلك إذا كثرت رواياتهم، ويُقال: روى فلان فلانا شعرا إذا روى له حتى حفظ الرّواية، ورويت الحديث والشعر رواية فأنا راوٍ"⁶.

(ب) - اصطلاحا: إنّ ضبط مفهوم اصطلاحيا كامل وشامل للرّواية يعدّ أمرا معقّدا وصعبا بعض الشيء، وذلك راجع لحداثتها ولتطوّرها المستمرّ، وهنا تكمن الصّعوبة، وقد أشار إلى ذلك الدّكتور "عبد المالك مرتاض" قائلاً: "والحقّ أنّنا بدون خجل ولا تردّد نُبادر إلى الرّد عن السّؤال بعدم القدرة على الإجابة، والسّؤال الذي يعينه مرتاض هو ما هي الرّواية؟"⁷ ورّما ذلك راجع كون الرّواية جنس أدبي دائم التطور والحركة فهي في تجدد مستمرّ وبالتالي ليست مقتصرة على الظهور في مرحلة تاريخية ذاتها.

أمّا "جورج لوكاتش" فيرى: "أن الرواية هي الجنس الأدبي النمطي للمجتمع البرجوازي، مع أنّ مجتمعات سابقة له قد عرفت أشكالاً أدبية تقترب من الرّواية، فإنّ الشكل الرّوائي لم يظفر بمقامه الحقيقيّ إلّا في المجتمع البرجوازيّ. في زمن الرّواية فإنّ الإنسان يتنزّل إلى نثر الحياة اليوميّة ويضيّع صفاءه الأوّل أي يدخل في علاقة تناقض مستحيل الحلّ مع عالمه. في الزمن البرجوازي يعثر الإنسان

على ذاته ويضعها من جديد... في الزمن البرجوازي يقوم الشكل الروائي بكتابة علاقة التناقض بين الإنسان والمجتمع. صعود البرجوازية وانحطاطها يعني صعود الرواية وانحطاطها".⁸ فالرواية قصّة طويلة مكتوبة نثرًا، وظهورها مرتبط بظهور الطبقة البرجوازية في ق18م وظهور الرأسمالية واقتصاد السوق أيضا، وبذلك تكون الرواية جنس أدبي حديث غربي المنشأ برجوازي الأصل، انتقل إلى العالم العربي بفعل عوامل عديدة.

3. تيمة المدينة في الرواية الجزائرية الحديثة والمعاصرة:

تعدّ الرواية فنّ أدبي حديث النشأة، انتقل من الثقافة الغربيّة إلى الثقافة العربيّة بفضل عدّة عوامل، ليندمج مع الثقافة العربية وتتأصل جذوره داخلها، حتّى أصبح لا يعدّ غريبا عنها، وتعتبر الرواية من الأجناس الأدبية الأكثر استيعابا لمختلف القضايا الإنسانية والاجتماعية والسياسية والثقافية، ذلك أنّ الروائي يتناول قضايا عصره بعين فاحصة محلّلة ثمّ ينقلها إلى القارئ في قالب إبداعي يكشف مدى تفاعل الأديب مع قضايا عصره، وهذا ما جسّدته الرواية العربيّة عامّة والجزائريّة خاصّة، حيث مثلت تيمة المدينة في الخطاب الروائي العالمي عامة، ومنه الجزائري خاصة مكوّنًا أساسيا، عبّر الكاتب من خلاله عن واقع المجتمع وواقع الإنسانية كلّها والذي يتجسّد في حياة الإنسان في مكان وبيئة معيّنة وفي وضعه الاجتماعيّ، ومواقفه وأحاسيسه ومشاعره.

إنّ أهمّ ما يميّز التجربة الروائيّة الجزائرية هو ارتباطها بالواقع، فالإنسان ابن بيئته يتأثر بها ويؤثر فيها وذلك من خلال علاقاته مع الآخرين، فنجد الروائي الجزائري "ياسمينه خضراء" في روايته "بم تحلم الذئب" التي نشرها بالفرنسية سنة 1999؛ "حيث يتخذ من الفراغات العمرانية لمدينة الجزائر مسرحًا وقعت فيه الأحداث الروائيّة في النص كلّ. يصوّر الكاتب اندفاع كثير من الشباب الجزائري إلى اعتناق إيديولوجية إسلامية متطرّفة ومساهمة المكان في تكثيف هذا التّطرّف. وهنا يبدع الكاتب في رسم الصورة المعماريّة والعمرانيّة للقصة أو الحيّ الشعبي التقليدي الذي يسكنه هؤلاء الشباب".⁹ ومن الدّراسات التي اهتمّت بإبراز صورة المدينة في المنجز الروائي الجزائري نجد رواية "الزلزال" للروائي الجزائري "الطاهر وطّار"؛ "التي تتخذ من مدينة قسنطينة مسرحًا للأحداث، حيث يتحدّد الفضاء العمراني الحضري داخل النصّ الروائي بوصفه معيارًا دالًا على الصّراع بين الشّخصيّة الرئيسيّة

والأرواح وبين المدينة التي تغيّرت كثيرًا في نظره، وترتكز البنية المعمارية للرواية أو معمار الرواية على سبعة فصول، يحمل كلّ فصل اسمًا لفضاء أو فراغ عمراني هو في الواقع اسم جسر من جسور المدينة بدءًا بباب القنطرة وانتهاءً بجسر الهواء".¹⁰

كما نجد أيضًا تجربة الروائي الجزائري "واسيني الأعرج" تحت عنوان "سيّدة المقام" فهي تعتبر تجربة ثريّة، ويعدّ هذا العمل من أولى الروايات الجزائرية التي تعرّضت لبدايات إلى مظاهرات أكتوبر 1988، فمنذ بداية الرواية إلى نهايتها يرثي صاحبها مدينة الجزائر العاصمة رغبة منه في قول شيء عن هذا البلد، "فهو الفضاء الروائي الذي تبرز فيه الأماكن الرئيسية المرتبطة بالأحداث، وإن كانت الرواية كلّها قائمة على صورة المدينة، إذ لم يخل فصل من ذكرها، إلّا أنّ تواترها يبلغ مداه في الفصل الثاني الموسوم بظلال المدينة، حيث يركّز السارد على وصفها؛ مقارنة بين ماضيها وحاضرها المتردّي".¹¹

ويمكن القول أنّ هنالك مستويات وزوايا متعدّدة في تمثالات الكتاب لتيمة المدينة، فالصورة ليست نمطيّة، وكلّ واحد تعرّض لها برؤى وتقنيات خاصّة، فقد حضرت المدينة بكيفيات مختلفة؛ حضرت قسنطينة وعنابة في رواية "نجمة" للكاتب ياسين، و حضرت الجزائر العاصمة في نصوص "مزراق بقطاش" و "حميد عبد القادر"، و حضرت وهران في نصوص "جمعي عبد القادر" و "أمين الزاوي" و "بشير مفتي"، ولم يقتصر حضور المدينة في النصوص الأعمال الروائية الرجالية إنّما امتد ذلك إلى الأعمال النسائية أيضًا فحضرت مدينة قسنطينة في رواية "ذاكرة الجسد" للروائية "أحلام مستغانمي".

4. تيمة المدينة وتجلياتها في رواية "الدار الكبيرة" لمحمد ديب:

شكل الحديث عن المدينة كفضاء محورًا أساسيًا في العديد من الدراسات التي اهتمّت بدراسة المكان باعتباره جزءًا لا يتجزأ من حياة الإنسان فهو يعبر عن ذاته ووجوده، ويعدّ الفضاء عنصراً أساسيًا في الرواية فهو الحيز الذي تقع فيه الوقائع والأحداث والمكان الذي تتحرك داخله الشخصيات، وبذلك "يمكن اعتبار الفضاء الروائي بمثابة بناء يتمّ إنشاؤه اعتمادًا على المميزات والتحديات التي تطبع الشخصيات بحيث يجري التحديد التدريجي ليس فقط لخطوط المكان

الهندسيّة وإتّما أيضاً لصفاته الدلالية وذلك يأتي منسجماً مع التطوّر الحكائي العام¹². أي أن الفضاء الروائي يكسب النص دلالات وهذه الأخيرة ما هي إلا نتاج وانعكاس للعلاقة القائمة بين الشخصيات والأمكنة. وبما أنّ فضاء المدينة يعدّ من أهمّ مسارج الكتابة السردية فقد وجد فيها الكاتب الجزائري مناخاً خصباً نظراً لما تحفل به فضاءات المدينة من تنوّع في الشخصيات والأماكن والأحداث والإيديولوجيات المختلفة، ولأنّ "محمد ديب" رائد من رواد هذا الخطّ الإبداعي فإنّه اتخذ من حال مجتمعه مادّة الأساسيّة في طرحه السردية، فقد تميّزت أعماله بالجرأة في الطرح ولعلّ أبرزها ثلاثيته المعروفة "الدار الكبيرة، الحريق، التول" التي كتبها على مدار خمس سنوات انطلاقاً من "الدار الكبيرة" سنة 1952 وصولاً إلى "التول" سنة 1957.

إن القارئ لروايات "محمد ديب" وخاصّة رواية "الدار الكبيرة" سيلحظ عنصر التكثيف المكاني عند هذا الأخير، وعليه جاءت رواية "الدار الكبيرة" ثريّة بالأمكنة التي تعكس ثراء أحداثها وتعدّد شخصياتها، ممّا ساهم في نموّ الأحداث وتعدّدتها، حيث يركّز "محمد ديب" على الإيقاع المكاني، ويجعل منه منطلقاً لتصوير بيئة مأساوية يعتمها الشقاء والجهل ممثلة في دار سبيطار الموجودة في مدينة "تلمسان" وذلك في فترة 1939، والتي كانت ضمن الطريق الذي يمرّ به "محمد ديب" يومياً للذهاب إلى العمل ولا تزال قائمة إلى يومنا هذا، والتي حوت -حسب الرواية- عائلات كثيرة في غرف متجاورة، تطلّ كلّها على فناء واحد مشترك. في ذلك البيت... وفي ذاك الزمان... صوّر لنا الكاتب حياة أسرة... أسرة من بين أسر كثيرة تتشابه فيما بينها وتتفاوت قليلاً في الشقاء... والسعي المتواصل الغير مجدي من أجل الخبز... أسرة نموذج للكفاح المرير... أسرة عنوان حياتها الفقر ومضمونها الشقاء. أسرة لالا عيني... عمر وعيني والجدة ماما، عمر الطفل الصغير وأمه لالا عيني وجدته ماما وأختاه. أسرة بخمسة أفواه كاملة وعائل وحيد: "إن عمر يعدو في مدينة مقفّرة، وهو من حين إلى آخر يصادف رجلاً من رجال الشرطة، أو كلباً تائهاً،... إنّ الحياة قد انسحبت من مدينة تلمسان التي تغرقها شمس باهرة، أصبحت المدينة فجأة أشبه بمدينة قد خلت من الحياة منذ آلاف السنين. شوارعها الواسعة هي الآن طرق خالية قديمة صمتت ضوضاؤها منذ زمن بعيد".¹³

لقد تعرض الكاتب "محمد ديب" في روايته "الدار الكبيرة" لقضايا مهمة، فهذه الأخيرة مليئة بسلطة الاسترجاع وذكريات لطفولة عاشت الشقاء والحرمان والبؤس، طفولة كانت تجعل من رغبة خبز مصدر سعادة وفرح، لتتحول المدينة والمكان إلى بؤرة جذب وانتفاضة لإشعال نار الثورة على المستعمر الفرنسي، وسرعان ما تتحول "دار سبيطار" هي الأخرى إلى مكان ومرجع ينطلق منه المواطن الجزائري بصفة عامة والبطل "عمر" بصفة خاصة للبحث عن حريته وكرامته، الأمر الذي جعل من "دار سبيطار" مسرحاً لأحداث كثيرة وحزينة كان لها بعد نفسي كبير في حياته.

إنّ الرواية في مجملها رواية مدنية حيث اتخذ الكاتب من مدينة "تلمسان" الفضاء المكاني الذي تدور فيه سلسلة الأحداث والوقائع، كما أنّها مسقط رأس هذا الأخير، فهو ليس مكان خيالي ولا مكان يوتوبي تصوّره الكاتب إنّما مدينة حقيقية تقع بالغرب الجزائري ذات وجود طوبوغرافي يضمّ أحداث ووقائع أقرب ما يكون إلى السيرة الذاتية كون الكاتب عاش ظروفًا صعبة في طفولته وفي نفس الحيّ. وعند تسليط الضوء على فضاء المدينة "تلمسان" نرصد نوعين من الأمكنة؛ المكان المفتوح الأقل انتشارًا في الرواية إلاّ أنّه يلعب دورًا مهمًا في تطوير الأحداث ومن أشكاله: الشوارع والساحات الريف والمدينة، أمّا المكان المغلق؛ الأكثر انتشارًا ذو دلالة نفسية وفنيّة ومن أشكاله: الدار، فناء الدار، الغرف، الدرج...

1.4 المكان المفتوح:

إنّ المكان المفتوح غنيّ بالدلالات والإيحاءات، وعند تتبع الأمكنة المفتوحة على المدينة في الرواية نجدّها فيما يلي:

(أ)- **الوطن:** هو فضاء مكاني شامل مفتوح يضمّ مدينة تلمسان وساحاتها وشوارعها ومبانيها وسكانها وبقية المدن الأخرى، فالرواية تعبّر عن صورة الوطن الجزائر إبّان الفترة الاستعمارية ومدى معاناة الشعب الجزائري للحصول على رغبة خبز بكلّ كرامة: "الوطن هو أرض الآباء. هو البلد الذي نسكنه منذ أجيال... بل هو كذلك كل ما على هذه الأرض من سكان وكلّ ما فيها بوجه الإجمال".¹⁴

ب)- الشوارع: يعتبر الشارع مكانا مفتوحا للمدينة، فهو يعكس صورة المدينة وحضارتها وطباع سكانها فيميّزها عن غيرها من المدن سواء سلبا أو إيجابا، فالشارع يضم المدينة كلها في نظر الطفل "عمر": "أصبحت المدينة فجأة أشبه بمدينة قد خلت من الحياة منذ آلاف السنين. شوارعها الواسعة هي الآن طرق خالية قديمة صممت ضوضاؤها منذ زمن بعيد"¹⁵، "بعد ذلك الفراغ المفاجئ الذي قام بعد الظهر، خرجت من الخوف جماهير الرجال والنساء والأطفال وراحت تمشي في شوارع المدينة على هون... إنّ سكان تلمسان على ميعاد. إنهم يخرجون إلى الشوارع على اتفاق..."¹⁶

ج)- المباني العامة والساحات: تعتبر المباني العامة والساحات من الأماكن المفتوحة للمدينة، فالبنايات المطلّة على ساحات وأزقة المدينة تعكس صورة الإنسان وما يصدر عنه من ردود أفعال وما يحمله من تطلّعات وآراء وآمال: "كانت جميع الشوارع تصبّ هذا الحشد في ميدان البلديّة. فهناك كان يجتمع سكان تلمسان. إنّ ألوف الأقدام تفرع أرض الشارع، فتحدث ضجّة صمّاء لا تنفك تتردّد إلى غير نهاية".¹⁷ فميدان البلديّة أصبح مكانا يحمل دلالة الرّفص السياسي والتمرد على قيود المستعمر.



الصورة 1: ميدان البلدية (الساحة) أثناء فترة الاستعمار¹⁸



الصورة 2: ميدان البلدية (الساحة) بعد الاستقلال¹⁹

(د) - **السوق**: يعتبر السوق من الأماكن المفتوحة للمدينة، فهو مكان آخر يجتمع فيه الناس عامّة وعمر بطل الرواية خاصّة، حيث يمثل السوق المكان الذي كان يقتات منه عمر بقايا الطعام نظرًا للعوز الشديد الذي كانت تعيشه أسرته الأمر الذي خلّف أثرًا ودلالة نفسية عند الطفل "عمر": "أمّا عمر فكان يشعر بموت في نفسه من طول ما نبش أكوام الفضلات في السوق المسقوفة. كان يذهب إلى السوق بحثًا عن خضر يمكن الانتفاع منها، فإذا عثر على شيء منها، أخذ يلتقطه ويدسّه في قفّته..."²⁰

(هـ) - **الرّيف**: إنّ الرواية في مجملها هي رواية مدنيّة إلّا أنّ الكاتب حاول أن يمزج مصادر صورته المكانية وأنّ يقدّم صورة مغايرة وعكسية للمدينة فاستعان بالرّيف وإن كان قليل المساحة نصيًا: "لقد صعد عمر مرّات إلى بني بوبلان مع زهور التي كانت أختها متزوجة رجلًا من الجبل، إن المزارعين في بني بوبلان يعيشون في يسر، كما في منزل قره علي... حيث ينساب الماء في الخضرة بين أشجار التين والتوت..."²¹ ويمثل الرّيف كمكان مفتوح في نظر الكاتب الدلالة الإيجابية والجانب المشرق والمفرح أمّا المدينة فتحمل الدلالة السلبية فقد كانت في نظره رمز الشقاء والفقر والمعاناة وبذلك يقدم الكاتب صورتين مختلفتين لكل منهما دلالتها الخاصة.



الصورة 3: الباب القديم منصور تلمسان (بني بوبلان قديما بلدية منصور حاليا)²²

2.4 المكان المغلق:

إنّ المكان المغلق يخضع لقواعد جمالية مهما كانت بسيطة، كما أنّه ذو أبعاد سيميائية ودلالة نفسية وفنية أيضا، فهو مرتبط بوجودنا الإنساني ويعكس خصوصياتنا، وعند تتبع الأمكنة المغلقة في الرواية نجدها فيما يلي:

(أ) - **دار سبيطار أو الدّار الكبيرة:** اختار الكاتب الدّار من مدينة "تلمسان" مسقط رأس الأخير، فالمقصود بـ: "الدّار" المحلّ وهو يجمع البناء والسّاحة وبالتالي الدّار هي الوحدة السّكنية الإنسانيّة أمّا "الكبيرة" فهي الواسعة إلّا أنّ الكاتب لم يستعمل هذا الوصف داخل روايته واستبدله بلفظة "سبيطار" وهو لفظ محلي جزائري يشير إلى شهرة المكان في الفضاء العام لمدينة تلمسان: "تشبه دار بيطار أن تكون بلدة. رحابها الواسعة جدّا تجعل من المعتذر على المرء أن يقول ما عدد السكان الذين تؤويهم على وجه الدّقة. حين شقّ قلب المدينة، وأقيمت شوارع حديثة، حجبت العمارات الجديدة وراءها تلك المباني القديمة المبعثرة التي بلغت من تراصها أنّها تؤلف قلبا واحداً: المدينة القديمة... إنّها بيت كبير عتيق، موقوف على سكان همهم الأكبر اختصار النّفقات. واجهة ليس فيها شيء من تناسق تطلّ على الشّوارع الضيّق الصّغير... إنّ دار سبيطار ملأى كخلية نحل".²³ فلنحظ ذلك الصّراع بين الفضاء المدني العام وبين المباني التراثية القديمة و"دار سبيطار" جزء من هذه الأخيرة، فدار سبيطار بيت عتيق مبنيّ على الطريقة الإسلاميّة وفي كلّ غرفة من هذا البيت تجتمع أسرة فقيرة بشيوخها ونسائها وأطفالها.



الصورة 4: دار سبيطار من الدّاخل (مدينة تلمسان)²⁴

(ب)- الباب الخارجي: هو المدخل الذي يدخل منه الإنسان وهو الحاجز الذي يفصله عن العالم الخارجي فيمنح للدار خصوصيته: "باب المدخل الذي يستند إلى إطار من الخشب غير محكم التثبيت في الجدار. زقزق الباب في أول الأمر ثم انفتح أخيراً. وبلغت قوّة ردّه أنه فرقع فرقعة هزّت أعماق البيت".²⁵

(ج)- الغرفة: دار سبيطار عبارة عن بيت كبير يضم مجموعة من الغرف، فالغرفة جزء من أجزاء الدّار ولها دلالتها الخاصّة، ومن أهمّ هذه الغرف نجد غرفة الطّفل "عمر" بطل الرّواية: "إنّ عيني لا تعرف كيف تتخلّص من ابنها لقد وضعت في الغرفة كانونا مليئا برماد الفحم... كان عمر يضع قدميه المتجمدتين على البلاط... كان عمر يحضن الكانون"،²⁶ وهذا ما يعكس المعاناة الشديدة التي كان يعيشها عمر خاصة وأفراد البيت عامّة، فالغرفة لم تكن مكانا للرّاحة بقدر ما كانت مكانا للمعاناة والألم فهي أشبه بالسّجن.

(د)- الفرن: من الأماكن المغلقة التكميلية التي تكمل بقية الأماكن العامة للرّواية: "كان خروج عمر لشراء الخبز من أحبّ الأمور إلى نفسه... ووصل عمر إلى الفرن ما أشدّ فرحته برؤية الأُرغفة ممدودة فوق الأرض على ألواح من خشب وصفائح من المعدن تنتظر أن يدسّها في الفرن رجل مسود يخرج كتفاه ورأسه من الحفرة التي في القاع"،²⁷ فالفرن يحمل دلالة الفرح والسّرور والرّضا، كما أنّه يدل على الطّعام هذا الطّعام هو رغيّف الخبز الذي يشعر عمر وغيره بالسّعادة. وهو مكان مركّب يضمّ داخله مجموعة من الأمكنة (ألواح من الخشب، الصفائح المعدنية، القاع).

(هـ) - المدرسة: هي مكان تلقي العلوم والمعارف، كما أنها كانت تمثل للطفل "عمر" مصدر رزق؛ حيث كان كل يوم يدخل في معارك مع الآخر في سبيل حماية الآخر أيضا، ليحصل بالمقابل على بعض الفتات من الخبز، كما أن الكاتب لم يركز على الفضاء المكاني للمدرسة بقدر تركيزه على بعدها الدلالي وما تحمله من مضامين ومدلولات كالوطن والمستعمر: "من منكم يعلم كلمة: الوطن. فقامت حركات عكرت هدوء الفصل. فضرب المعلم إحدى المناضد بعصاه، فأعاد إلى القاعة النظام..."²⁸

5. خاتمة:

- وفي ختام هذه الدراسة يمكن أن نقف على جملة من النتائج نحددها على النحو التالي:
- تطرقت الرواية الجزائرية لعالم المدينة بمختلف صوره، وحضور هذه الأخيرة في النصوص الروائية بصفة عامة والجزائرية بصفة خاصة ما هو إلا انعكاس لبعض التحولات والأحداث والوقائع التي عرفها المجتمع الجزائري.
 - حضور الفضاء المدني في المتن الروائي، يساعد في بناء البنية السردية، وانتقال الشخصية عبر هذه الفضاءات يؤدي إلى تعدد الأماكن وتنوعها.
 - اهتمام الكاتب "محمد ديب" بالعنصر المكاني، حيث شكلت المدينة موضوعا خصباً داخل الرواية، رصد الكاتب من خلالها حالة الشعب الجزائري ومعاناته أثناء الاستعمار.
 - وظف الكاتب "محمد ديب" المدينة توظيفا متميزا الأمر الذي يعكس مدى اتساع ثقافة الأديب وعمق فكره.
 - المدينة عند الكاتب ليست مكان يوتوبي من نسج الخيال إنما مدينة حقيقية ذات وجود طوبوغرافي عايشة تلك الفترة من الاستعمار فشهدت العديد من الأحداث والوقائع وهو ما حاول الكاتب إيصاله للمتلقي بعيداً عن الخيال.
 - انصهار الشخصية في المدينة، والمدينة في الشخصية، مما سمح بتلاشي حدود الجسد وحدود المدينة، ليصبح الجسد مدينة والمدينة جسداً.

- العلاقة بين الرواية والمدينة هي علاقة تلازمية؛ فبالنظر إلى ما تعايشه المدن من أحداث ووقائع ومستجدّات، حاولت الرواية التعبير عنه وتصويره وجعل ذلك مادّة للإبداع الأدبي.
- تنوّع الأمكنة في الرواية بين مكان مغلق وآخر مفتوح لكلّ منها خصوصيتها ودلالاتها.
- اهتمام الرواية بصورة الوطن الجزائر كمكان بصفة عامة وبمدينة تلمسان كمكان أيضا بصفة خاصة فهي هي جزء من الجزائر وتمثل جزءا من المعاناة التي عاشها الشعب الجزائري إبان الاستعمار الفرنسي.
- تناول الكاتب قضايا مهمة مليئة بسلطة الاسترجاع وذكريات لطفولة عاشت الشقاء والحرمان والبؤس، طفولة كانت تجعل من رغبة خبز مصدر سعادة وفرح، لتتحول المدينة والمكان إلى بؤرة جذب وانتفاضة لإشعال نار الثورة على المستعمر الفرنسي.
- صحيح أن هناك نصوص روائية تمثلت المدينة بوعي إبداعي شديد الخصوصية فنجد حضور مدينة تلمسان في ثلاثية محمد ديب وقسنطينة في رواية "الزلزال" للطاهر وطار و"ذاكرة الجسد" لأحلام مستغانمي.. وبعض الأعمال الروائية لمالك حداد وفضيلة الفاروق إلّا أنّ ذلك لا ينفي حضورها المحتشم في بعض المواضع مقارنة ببعض الكتاب الأجانب أمثال "بول أوستر" في "ثلاثية نيويورك" وكذلك العرب أمثال نجيب محفوظ (القاهرة) وغيرهم.

5. قائمة الإحالات:

- ¹- بحراوي حسن، بنية الشكل الروائي، ط1، المركز الثقافي، (الدار البيضاء، 1990)، ص156.
- ²- ابن منظور محمد بن مكرم أبو الفضل، لسان العرب، ج3، تح:عبد الله عبد الكبير وآخرون، دار صادر، (بيروت)، مادّة مَدَن، ص455.
- ³- محمد داود، المدينة في الرواية الجزائرية الفضاء القسنطيني في رواية "الزلزال"، مجلة إنسانيات، العدد13، المجلة الجزائرية في الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية، 2001، ص28.
- ⁴- قادة عقاق، دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر دراسة في إشكالية التّلقي الجمالي للمكان، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (دمشق، 2001)، ص ص22-23.
- ⁵- مجّمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ط4، مكتبة الشروق الدولية، (مصر، 2005)، مادة روى، ص384.
- ⁶- ابن منظور محمد بن مكرم أبو الفضل، لسان العرب، ط1، دار صادر، (بيروت، لبنان، 1997)، مج6، مادة روى، ص371.

- ⁷- صالح مفقوده، نشأة الرواية العربية في الجزائر التأسيس والتأصيل، مجلة المخبر؛ أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر بسكرة، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، قسم الأدب العربي، الجزائر، العدد2، 2005، ص2.
- ⁸- سالم المعوش، صورة الغرب في الرواية العربية، ط1، مؤسسة الرحاب الحديثة، (بيروت، لبنان، 1998)، ص115.
- ⁹- علي عبد الرؤوف، مدن العرب في رواياتهم، ط1، مدارات للأبحاث والنشر، (القاهرة، مصر، 2017)، ص173.
- ¹⁰- المرجع نفسه، ص175.
- ¹¹- طويل سعاد، المدينة في رواية" سيدة المقام" لواسيني الأعرج، مجلة المخبر؛ أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر بسكرة، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، قسم الأدب العربي، الجزائر، العدد4، 2008، ص ص234-235.
- ¹²- حسن بجاوي، بنية الشّكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، ط1، المركز الثقافي العربي، (بيروت، لبنان، 1990)، ص30.
- ¹³- ثلاثية محمد ديب الدّار الكبيرة الحريق النول، تر: سامي الدروبي، دار الوحدة للطباعة والنشر، (بيروت، لبنان، 1985)، ص106.
- ¹⁴- المرجع السابق، ص20.
- ¹⁵- المرجع نفسه، ص 106.
- ¹⁶- المرجع نفسه، ص110.
- ¹⁷- المرجع نفسه، ص110-111.
- ¹⁸ - <https://amaltilimsan.yoo7.com/t12142-topic> في 2022/5/5 على الساعة 18:00
- ¹⁹<https://www.vitamedz.com/ar/%D8%AA%D9%84%D9%85%D8%B3%D8%A7%D9%86/%D8%AF%D8%A7%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D8%A8%D9%8A%D8%B7%D8%A7-18195-Photos-1.html> في 2022/5/5 على الساعة 18:04
- ²⁰- ثلاثية محمد ديب الدّار الكبيرة الحريق النول، تر: سامي الدروبي، دار الوحدة للطباعة والنشر، (بيروت، لبنان، 1985)، ص91.
- ²¹- المرجع نفسه، ص91.
- ²² <https://www.vitamedz.com/ar/%D8%A7%D9%84%D8%AC%D8%B2%D8%A7%D8%A6%D8%B1/%D8%A2%D8%AB%D8%A7%D8%B1-%D9%85%D8%AF%D9%8A%D9%86%D8%A9-%D9%85%D9%86%D8%B5%D9%88%D8%B1%D8%A9-%D8%A8%D8%AA%D9%84%D9%85%D8%B3%D8%A7%D9%86-60768-Photos-0-0-1.html> في 2022/5/5 على الساعة 18:22
- ²³- ثلاثية محمد ديب الدّار الكبيرة الحريق النول، ص 47-48.
- ²⁴<https://www.vitamedz.com/ar/%D8%AA%D9%84%D9%85%D8%B3%D8%A7%D9%86/%D8%AF%D8%A7%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D8%A8%D9%8A%D8%B7%D8%B1-18195-Photos-1.html> في 2022/5/5 على الساعة 18:33
- ²⁵- ثلاثية محمد ديب الدّار الكبيرة الحريق النول، ص 49.

²⁶- المرجع نفسه، ص 23.

²⁷- المرجع السابق، ص 109.

²⁸- المرجع السابق، ص 19.